تأثير المدائح النبوية الأولى في

بقلم: د. عبدالقدوس أبو صالح

يجمع الرواة على أن المدائح النبوية الأولى التي صاغها شعراء الأنصار والمهاجرين وغيرهم من شعراء البادية، إنما بعث عليها أن قريشاً كانت تحارب رسول الله ﷺ بالسنان واللسان، مدفوعة بجاهليتها الجهلاء، ووثنيتها الخرقاء، وعصبيتها العمياء.

ولقد كانت بداية المدائح النبوية استجابة من شعراء الرسول ﷺ عندما حض حساناً وكعباً وابن رواحة على أن يدفعوا عدوان قريش بمثل عدوانها على الله ورسوله.فقد جاء في صحيح البخاري من حديث عمار بن ياسر[1] لما هجانا المشركون قال لنا رسول الله ﷺ : قولوا لهم كما يقولون لكم.

وجاء في مصنف عبدالرزاق من طريق محمد بن سيرين قال[2]: هجا رهط من المشركين النبي ﷺ وأصحابه، فقال المهاجرون: يا رسول الله ألا تأمر علياً فيهجو هؤلاء القوم؟ فقال: إن القوم الذين نصروا بأيديهم أحق أن ينصروا بألسنتهم. فقالت الأنصار: أرادنا والله، فأرسلوا إلى حسان، فأقبل فقال: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما أحب أن لي بمقولي ما بين صنعاء وبصرى، فقال: أنت لها. فقال: لا علم لي بقريش. فقال لأبي بكر: أخبره عنه، ونقب له في مثالبهم».

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال[3]: «اهجوا قريشاً فإنه أشد عليهم من رشق النبل. فأرسل إلى ابن رواحة فقال: اهجهم فلم يرض. فأرسل إلى كعب ابن مالك. ثم أرسل إلى حسان بن ثابت. فلما دخل حسان قال: آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم رفع لسانه فجعل يحركه، وقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم فري الأديم».

وروي أن رسول الله ﷺ قال:[4] «أمرت عبدالله بن رواحة فقال وأحسن. وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن. وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى».

على أن من يستعرض المدائح النبوية الأولى لابد أن يلحظ غلبة الشعر الحماسي عليها. إذا كانت عناصر المدحة النبوية تقوم بعد المقدمة الغزلية أو الطللية على ذكر شيء من شمائل الرسول ﷺ والدفاع عنه وهجاء خصومه. وكان هذا الهجاء يستدعي نقيضه وهو الفخر بالإسلام والمسلمين. وكان لابد لهذا الفخر أن يداخله غرض الحماسة دائماً مداخلة عجيبة حتى كاد أحد الغرضين أن يذوب في الآخر.

وإذا كان الشعر الحماسي يضرب في قلب الجاهلية، ويحمل كثيراً من مثلها في الفتك والاستباحة وإثارة العصبية وتأريث الحقد والعداوة مما جعل بأس العرب شديداً بينهم، فإن هذا الشعر لابد له أن يتطور حين أشرقت الجزيرة بنور ربها من دون أن يضعف أو يفتر كما زعم الواهمون. إذ كانت معركة الإسلام مع كفار قريش مثاراً لكثير من هذا الشعر، وفي هذا المجال يقول الدكتور شوقي ضيف[٥] «لعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن الإسلام أذكى جذوة الشعر، وأشعلها إشعالاً، فإن أحداثه حلت من عقد الألسنة، وأنطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه» وكان مغازي الرسول ﷺ تفتح للشعر الحماسي آفاقاً جديدة، وتميزه بسمات إسلامية لا عهد للشعر الجاهلي بها.

وحقاً إن الشعر الذي جاء به شعراء الرسول ﷺ كان يدور حول هجاء قريش ومناقضة شعرائها وتسفيه أقوالهم، ولكنه كان يفيض بالشعر الحماسي إذ يعارض شعراء قريش «بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر»[٦] بل إن هذا الشعر الحماسي يكثر ويستفيض حين تندلع نار المعركة بين المسلمين وكفار قريش، إذ أصبح الشعراء يجدون في المعارك التي يخوضها المسلمون والبطولات التي يبدونها ما يغنيهم عن ذكر الوقائع والأيام الغابرة.

ولعل أهم ما يطالعنا في شعر المدائح النبوية لهذا العهد ما كان يطلقه شعراء الرسول ﷺ قبل المعارك وبعدها من نذر الوعيد وصيحات التهديد، إذ يخيرون المشركين بين الإذعان إلى الإسلام أو الإيذان بحرب لا تبقي ولا تذر، ومن أروع ما قيل في هذا السبيل أبيات كعب بن مالك[٧]:

فإن تلقوا إلينا السلم نقبل
ونجعلكم لنا عضداً وريفا
وإن تأبوا نجاهدكم ونصبر
ولايك أمرنا رعشاً ضعيفاً
نجالد ما بقينا أو تنيبوا
إلى الإسلام إذعاناً مضيفا
وكم من معشر ألبوا علينا
صميم الجذع منهم والحليفا
أتونا لا يرون لنا كفاءً
فجدّعنا المسامع والأنوفا
بكل مهند لَيْنٍ صقيل
نسوقهم بها سوقاً عنيفا

ويتولى شعراء الرسول ﷺ الرد على شعراء قريش ويفحمونهم بأشعارهم ويثلج ذلك قلب الرسول الكريم فيقول ما قدمناه: «**أمرت عبدالله بن رواحة فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى**».

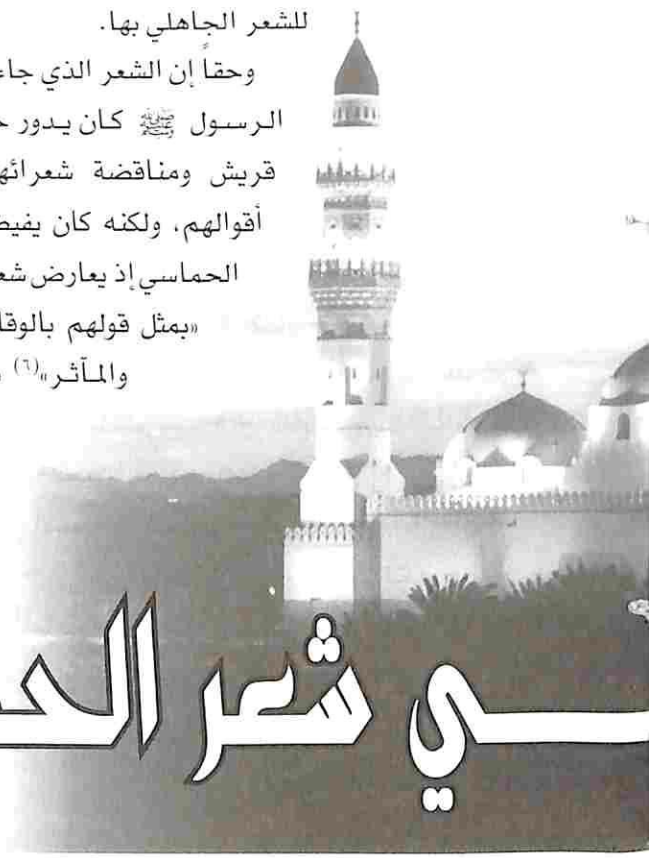

في شعر الحماسة الإسلامية

ومن العجيب بعد هذه الشهادة من رسول الله ﷺ أن يزعم الأصمعي أن شعر حسان قطع متنه بعد الإسلام، وإنما يكفي للرد على مثل هذا القول أن نسمع أبياناً من همزية حسان التي يرد فيها على أبي سفيان بن الحارث، ويتنبأ بأن المسلمين سوف يفتحون مكة بإذن الله، وتعد همزية حسان هذه من غرر المدائح النبوية وفيها يقول[٨]:

عدمنا خيلنا إن لم تروها
تثير النقع موعدها كداء
يبارين الأعنة مصعدات
على أكتافها الأسل الظماء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا
وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم
يعز الله فيه من يشاء
وجبريل رسول الله فينا
وروح القدس ليس له كفاء
فنحكم بالقوافي من هجانا
ونضرب حين تختلط الدماء

وأي ضعف يمكن أن يلصق بشعر حسان، وهو الذي ارتجل يوم وفد بني تميم قصيدته العينية معارضاً بها الزبرقان بن بدر شاعر بني تميم فجاءت قصيدة حسان من غرر المدائح النبوية، وقد جاء في خبرها «أن الرسول ﷺ أرسل إلى حسان بن ثابت فقيل له: قد جاء وفد بني تميم بخطيب وشاعر، وقد دعاك رسول الله ﷺ لتجيب شاعرهم، قال حسان: فأقبلت وأنا لا أدري ما يقول شاعرهم، وأنا أهيئ أبياتاً قبل أن أصل إليهم، وأنا أمشي نحو رسول الله ﷺ وأقول:

منعنا رسول الله إذ حلّ وسطنا
على أنف راض من معد وراغم
منعناه لما حل وسط بيوتنا
بأسيافنا من كل باغ وظالم

قال: فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ قام شاعرهم، فقال ما قال، فقلت[٩]:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا

ومن الشعر الحماسي الرائع في هذه القصيدة قول حسان:

أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم
فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا
إن قال سيروا أجدوا السير جهدهم
أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا
ما زال سيرهم حتى استقاد لهم
أهل الصليب ومن كانت به بيع
كأنهم في الوغى،والموت مكتنع
أسُد ببيشة في أرساغها فدع
أكرم بقول رسول الله قائدهم
إذا تفرقت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتي قلب يؤازره
فيما يحب لسان حائك صنع

وكان رسول الله ﷺ يطرب للشعر للحماسي الذي يداخل مدائح شعرائه فيه، ويهتز له ويثني على قائله، وقد حدث عبدالله بن رواحة قال[١٠]: «مررت بمسجد رسول الله ﷺ ، وهو في نفر من أصحابه، فأضب القوم: يا عبدالله بن رواحة، يا عبدالله بن رواحة، فعرفت أن رسول الله ﷺ دعاني، فانطلقت إليهم مسرعاً فسلمت، فقال: ها هنا، فجلست بين يديه، فقال - كأنه يتعجب من شعري: كيف تقول الشعر إذا قلت؟ قلت: أنظر في ذلك ثم أقول، قال: فعليك بالمشركين، قال: فلم أكن أعددت شيئا فأنشدته، فلما قلت:

فخبروني أثمان العباء متى
كنتم بطاريق أودانت لكم مضر

قال: فكأنما عرفت في وجه رسول الله ﷺ الكراهة أن جعلت قومه أثمان العباء، فقلت:

نجالد الناس عن عرض فنأسرهم
فينا النبي وفينا تنزل السور

وقد علمتم بأنا ليس غالبنا
حي من الناس إن عزوا وإن كثروا
يا هاشم الخير إن الله فضلكم
على البرية فضلاً ما له غير
إني تفرست فيك الخير أعرفه
فراسة خالفتهم في الذي نظروا
ولو سألت أو استنصرت بعضهم
في جل أمرك ما آووا وما نصروا
فثبت الله ما أتاك من حسن
تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

فأقبل عليّ بوجهه مبتسماً ثم قال: وإياك فثبت الله».

ومما يدل على مدى ممازجة الشعر الحماسي للمدائح النبوية واحتفال شعراء الرسول ﷺ به أن كثيراً منهم كان يبدأ مدحته بالشعر الحماسي متجاوزاً النسيب والوقوف على الأطلال، وهذا ما نراه في شعر العباس بن مرداس الذي مضى يفتخر ببلاء قومه وما قدموه من نصرة للإسلام ليختم ذلك كله بالدعاء للرسول ﷺ ، وذلك حيث يقول[11]:

نصرنا رسول الله من غضب له
بألف كميّ لا تعد حواسره
حملنا له في عامل الرمح راية
يذود بها في حومة الموت ناصره
ونحن خضبناها دما فهو لونها
غداة حنين يوم صفوان شاجره
وكنا على الإسلام منمية له
وكان لنا عقد اللواء وشاهره
وكنا له دون الجنود بطانة
يشاورنا في أمره ونشاوره
دعانا فسمانا الشعار مقدماً
وكنا له عوناً على من يناكره
جزى الله خيراً من نبي محمداً
وأيده بالنصر والله ناصره

ولعلنا نخلص من استعراض المدائح النبوية الأولى إلى أن أعظم تأثير لها في الشعر الحماسي هو صدوره عن عقيدة راسخة وإيمان صادق، وارتفاعه عن العصبيات الضيقة، والتناحر البغيض، إلى آفاق العقيدة والحض على الجهاد والاستشهاد، وهكذا تحول الشعر من ألهية فنية إلى وسيلة نافعة[12] تمد كتائب المجاهدين بطاقات نفسية وتدفعهم إلى إعلاء كلمة الله في الأرض.

ولو تصفحنا أبيات الحماسة في المدائح النبوية الأولى لوجدناها في مجموعها تصدر عن روح جماعية متحدة الوجدان، ولذا يسم الشعر في كثرته استخدام ضمير الجماعة بشكل ملحوظ، وهذه الجماعة لم تعد بطبيعة الحال هي القبيلة أو العشيرة، وإنما هي جماعة المسلمين الكبيرة التي استوعبت كل العلاقات العصبية والقبلية القائمة على وشائج القربى والدم والنسب فنسختها في إطار وجداني يقوم على أواصر العقيدة والأخوة والمساواة والإنسانية.

ونحن لا نعدم أن نجد شعراء يتغنون بقبيلتهم كما رأينا في شعر العباس بن مرداس غير أن ذلك لم يحدث إلا نادراً عندما يكون لهذه القبيلة موقف معين أو سبق إلى تقديم عون أو نصرة على أن هذا الشعر الذي كانت تذكر فيه القبيلة ظل محاطاً في شعر المدائح النبوية، ثم في شعر الفتوح الإسلامية، بسياج من المعاني الإسلامية تحول دون أن يرتد حماسة جاهلية بكل ما فيها من عصبية وأنانية وترديد لمعاني الفتك والاستباحة، وإنما نرى شعراء المدائح النبوية الأولى ينسون أنفسهم وقومهم

في سبيل عقيدتهم ويفتدون بأنفسهم دينهم وجماعتهم من المسلمين مما طبع شعر الحماسة الإسلامية بطابع الالتزام وجعله أداة في خدمة المثل الإسلامية والغايات التي تدعو إليها. وكان لهذا أكبر الأثر في تلوين أغراض الشعر ومعانيه بأسلوب إسلامي واضح يتفق وهذا الالتزام»[١٣].

كذلك اتصف شعر الحماسة الإسلامية في هذا العصر بطابع العفوية التي تستمد من سماحة الإسلام وكراهة التعمل والتكلف وهي صفات عني الإسلام بغرسها في نفوس المسلمين عامة»[١٤].

وقد استمرت هذه السمات التي استمدها شعر الحماسة الإسلامية من المدائح النبوية الأولى في شعر الفتوح ثم في شعر الحماسة في العصور الأدبية المتتابعة، وإن أخذ شعر الحماسة نفسه ينضب معينه في شعر المدائح النبوية التي اتجهت في عصر الدول المتتابعة اتجاهات متباينة إذ اتسع القول للشعراء في تبيان شمائل الرسول ﷺ، ومضى بعضهم يذكر من صفاته الجسدية ما يدخل في المبالغة، ويخرج عن القصد، كما يخرج عما رأيناه من سنن المدائح النبوية الأولى.

كذلك نجد في المدائح النبوية في عصور الانحدار والغزو الصليبي والمغولي صيحات الشكوى من حال المسلمين وما أصابهم من الوهن والذل كما تردد فيها صيحات الاستنجاد والاستغاثة بالرسول ﷺ وهذه بدعة في المدائح النبوية كما هي بدعة مرفوضة في الدين.

حتى إذا أطل عصر النهضة رأينا عودة كثير من المدائح النبوية إلى الاعتماد على الشعر الحماسي حين مضى الشعراء يستعيدون ذكريات المغازي النبوية ومعارك الإسلام الكبرى ويضربون بها الأمثال ليستمد منها المسلمون المعاصرون روح الجهاد والمقاومة، وهي روح سرت في الشعر الإسلامي الحديث كله، ولم تقتصر على شعر المدائح النبوية، وإن كان شعر الجهاد عبر العصور الأدبية بما فيها العصر الحديث مديناً في كثير من سماته للمدائح النبوية الأولى التي أبانت النهج، وأوضحت القصد على مرأى ومسمع من رسول الله ﷺ وتشجيع منه حين كان يقول لأصحابه[١٥] «اهجوا قريشاً فإنه أشد عليهم من رشق النبل» وحين قال للشاعر الأول حسان[١٦]: «اهجهم وجبريل معك»■

الهوامش:

(١) فتح الباري ٥٤٦/١٠ .

(٢) المصدر السابق ٥٤٧/١٠ .

(٣) الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة ص ٦٧.

(٤) ورد هذا الحديث في المصدر السابق برواية أخرى: «هجاهم حسان فشفى وأشفى» وانظر في هذا الحديث وما قبله ترجمته في كتب الصحابة.

(٥) العصر الإسلامي ص ٤٦.

(٦) الأغاني ١٣٨/٤.

(٧) الاستيعاب ٢٢٣/١، وديوان كعب ٢٣٤.

(٨) ديوان حسان بشرح البرقوقي ص٦٠.

(٩) ديوان حسان تحقيق وليد عرفات ص ١٠٢.

(١٠) طبقات مخول الشعراء ص ١٨٧، وديوان عبدالله بن رواحة بتحقيق د. حسن باجودة ص ٩٣.

(١١) ديوان العباس بن مرداس بتحقيق الدكتور يحيى الجبوري ص٥٦.

(١٢) شعر الفتوح الإسلامية للدكتور النعمان القاضي، ص١٧١.

(١٣) شعر الفتوح الإسلامية ص٢٦٨

(١٤) انظر المصدر السابق ص ٣٠٨

(١٥) تقدم الحديث وتخريجه.

(١٦) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٥٤٦/١٠ .